دراسات أدبية

مقتل الحســـين

وأثره في الأدب العربي

للأستاذ ضياء الدين الدخيلي

هذا المحرم قد وافتك صارخة ... مما استحلوا به أيامُـه الحرم
يملأن سمعك من أصوات ناعية ... في مسمع الدهر من إعوالها صمم
تنمي إليك دماء غاب ناصرها ... حتى أريقت ولم يرفع لكم علم

جاء المحرم فالمساجد العراقية مجللة بالسواد، والوجوه تعلوها الكآبة، هنا وهناك عويل ونواح يكربان القلب. الصدور موجعة بضرب الأيدي، والمتون مكلومة باللدم بالسلاسل النحاسية، والنفوس فزعة جزعة قد تملكها الهلع إذ خلبتها الألسن الذلقة التي لم تدع أسلوباً لتهويل فاجعة كربلاء إلا ركبت سبيله الأوعر والأشد إيلاماً والأنكى لذعة ولوعة. مواكب تجليت السرابيل المضاعفة من الحزن خنقها الأسى فلا تأسى، ورؤوس تشج بحد السيوف، ودماء تراق على مذبح فاجعة كربلاء، فما قيمة العبرات والزفرات والدموع المنصبة على أقدام هذه المأساة المؤلمة التي لم يع التاريخ أفجع منها ولا أكثر جلبة من تباعاتها. ففي إيران والعراق والهند وسورية والحجاز وهنا وهناك مآتم ومناحات تعقد لتسكب العبرات وتنفث الزفرات، فكأن نفس الشرق الحالمة بالأشباح والرؤى، المفعمة بالطموح وأحلام الغيب، المتبرمة بالحياة وأحكامها التي ترزح بأعبائها — وجدت في هذه المأساة مجالاً واسعاً لإعلان عويلها والتنفيس عن كربها

وإن شيعة العلويين التي لم تهيمن على مقدرات البلاد ولم تسيطر على أزمة الحكم وتقبض على السلطة الزمنية إلا قليلاً، بقيت طوال الدهر ناقمة ساخطة على الدهر الهازل، ساخرة من أقداره المملوءة بالهازل، فشاعرها (السيد جعفر الحلي صاحب ديوان سحر بابل وسجع البلابل) يقول:

وجه الصباح عليّ ليل مظلم ... وربيع أيامي على محـــرم
بي قرحة لو أنهـا بيلملم ... نسفت جوانبه وساخ يلملم [1]

(١) جبل

ما خلت أن الدهر من عاداته ... تروى الكلاب به ويظما الضيغم
ويقدم الأموى وهو مؤخر ... ويؤخر العلوى وهو مقـدم
مثل ابن فاطمة ببيت مشرداً ... ويزيد في لذاته متنعم
ويضيق الدنيا على ابن محمد ... حتى تقاذفه الفضـاء الأعظم
خرج الحسين من المدينة خائفاً ... كخروج موسى خائفاً يتكتم

وقد صبغ المحرم أدب الشيعة بصبغة سوداء قاتمة بالكآبة، حمراء ملطخة بدم الشهداء، كالحة تعلوها شارات التكدر والانزعاج من الوضع الراهن الواقعي، وهذا الأدب الباكي تسوده الأحلام بفردوس مفقود أسسه العدالة، يرجع فيه حق الحكم إلى أهله وذويه الشرعيين، لذلك فهو أبداً يتدب (صاحب الزمان) الذي غاب عن الأنظار ليعود فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملأت جوراً وعسفاً. وسوف يعم في عهده الأمان ويسود السلام المجتمع حتى ترعى الشاة مع الذئب، فاسمع السيد حيدر الحلي يندب الامام الغائب:

مات التصبر في انتظا ... رك أيهـا المحيي الشريعة
بك تستغيث وقلبهـــا ... لك عن جوى يشكو صدوعه
ما ذا يهيجك إن صـبر ... ت لوقعة الطعن الفجيعه
حيث الحســـين بكربلا ... خيل العدى طحنت ضلوعه

والشيعة تعتقد أن حكم اليوم مضرج بدماء الأبرياء، ملطخ ببقع سوداء من قضاء الجور والشبهات. وفي الحق أن الأدب الشيعي خير مثال لأدب التشاؤم الساخط على الحياة الحالم بالمثل الأعلى. ولا أريد أن أصدر حكماً عاماً شاملاً على أدباء الشيعة وأكسوهم بهذه الصبغة الحالكة، فمن قرأ غزليات السيد محمد السعيد الحبوبي الشاعر النجفي (طبع ديوانه في بيروت) وأسام سرح الطرف بين موشحاته الرقيقة وروضياته وخمرياته وجدها ضاحكة متهللة طروباً، ومن خير ما يمثل الحياة المرحة البهيجة (وعسانا أن نتحدث إلى قراء الرسالة الكرام عن أدب هـذا الشاعر العبقري). إنما أعني هذا القبيل الذي أترع أدبه بالعويل والنياحة، وعلى رأس هذا الرعيل السيد حيدر الحلي، وهاشم الكعبي، وصالح الكواز، وصالح القزويني العلوي، وابراهيم الطباطبائي، وجعفر الحلي، ورضا الهندي، وكاظم الأزري وعبد المطلب الحلي، وعبد الحسين الأعسم، وهؤلاء شعراء مطبوعون

لهم دواوين مفعمة بالأدب المشبع قوة وحيوية ؛ وقد أقاموا على شواطئ الفرات في غضون عصر النهضة دولة للشعر يدعمها خصب القرائح ورصانة الأساليب ومتانة السبك ودقة المعنى وسمو الخيال . وإنه لمن العقوق أن تتغافل عن دراسة أدبهم الأقلام العربية النزيهة بمصر ، وإنك إذا تصفحت ما خلفوه من شعر محكم الأثر ، قوى البيان ، فخم التعابير ، جزل الألفاظ ، وجدته طافحاً بالتهديد والتنديد بالأمويين وما استباحوه من الدماء المحرمة في كربلاء ، وما انتهكوه من حرمة ذرية الرسول ، فترى المحرم قد صبغ أدبهم بصبغة خاصة لا تجد نظيرها في كثير من الآداب العالمية ، وقد مزجوا بشعرهم الوجداني قصصاً ووقائع تاريخية فاستحدثوا لوناً يختلف عما ألفناه في أقسام الأدب العربي من قبل . وقد قرأت للأستاذ الزيات في كتابه (في أصول الأدب) كلمته الآتية ، قال عند استعراضه العوامل المؤثرة في الأدب : « وتأثير الأديان في الأدب أمر ثابت بأدلة الطبع والسمع فإنها تخلق موضوعات جديدة لمصنفات جديدة ، وتؤثر في الأخلاق والعواطف تأثيراً يتردد صداه في مناحي الأدب ... فأن في كل دين من الأديان السماوية قسماً وجدانياً اجتهادياً يختلف أبناؤه في فهمه اختلافهم في الطبائع والمنازع والغاية ؛ فأشعار الخوارج مثلا تنضح بالدماء وتطفح بالحماسة لتعصبهم وتصلبهم وجعلهم غاية الإسلام جهاد مخالفيهم في الرأى ، وأشعار الشيعة تفيض بإجلال زوج البتول وصهر الرسول وتمجيد ذكرى بنيه وتمثيل آلامهم ورثاء من قتل من أعلامهم »

وما لوّح إليه الأستاذ الزيات حقيقة راهنة تعضدها قواعد علم النفس وأصول التربية الحديثة وقواميس الاجتماع ويدعمها الوجدان بأنصع برهان ؛ فها هي ذي المجاميع المشحونة بالقصائد العصماء التي تتفجر حزناً لمقتل سيدنا الحسين عليه السلام ، ومن أحدثها (لواعج الأشجان) تأليف العلامة السيد محسن العاملي ، و (مثير الأحزان) وحسبك بأسمائها معرفاً بما انطوت عليه صدورها من مآس .

هذا عدا الدواوين المسودة بنى شهداء هذه الوقعة ، وقد كان حامل لواء هذه السرايا هو الشريف الرضى (موضوع دراسة الدكتور زكي المبارك ضيف العراق الكريم فقد أخذ اليوم في تحليل أدبه الخالد فكانت أبحاثاً ممتعة أصبحت محور الحديث والمناقشة في الأوساط الأدبية هنا) ، وقد كان الشريف الرضي مفجوعاً كليم الفؤاد فتجد شعره في رثاء الحسين طافحاً بالأنين والحنين ، قال في قصيدة مقصورة :

وضيوف لفلاةٍ قفرة ... نزلوا فيها على غير قرى
لم يذوقوا الماء حتى اجتمعوا ... بمجدا السيف على ورد الردى
ووجوه كالمصابيح ثمن ... قمر غاب ونجم قد هوى
غيرتهن الليالي وغدا ... جائرَ الحكم عليهن البلى
يا رسول الله لو عاينتهم ... وهم ما بين قتالٍ وسبا
من رميض يمنع الظل ومن ... عاطش يُسقى أنابيب القنا
ومَسوقٍ عاثر يسعى به ... خلف محمول على غيروطا
جزَرُوا جزر الأضاحي نسله ... ثم ساقوا أهله سوق الإما
وا قتيلاً قوّض الدهر به ... عُمُد الدين وأعلام الهدى
غسلوه بدم الطعن وما ... كفّنوه غير بوغاء[1] الثرى

وشاعر علوي آخر لا يقل في جودة شعره وروعة شوارده عن أبي الطيب المتنبي ، ولربما يجوزه في حماسه الملتهب وطموحه المتوثب المتحفز للانتقام في المستقبل الغامض ، ذلك هو السيد حيدر الحلي ولد عام ١٢٤٦ وتوفى سنة ١٣٠٤ ، وبلده الحلة مدينة كبيرة تقع على أحد فروع نهر الفرات قرب موقع بابل التاريخية ، وقد نبغ فيها عدد غفير من الشعراء النابغين . وإن شاعرنا هذا يمتاز بفخامة التعابير وروعة الأحلام ودقة الوصف والتصوير والمقدرة على التهويل وإلباس الحوادث جلباب الضخامة والجسامة ونحت هياكل الأشباح والأخيلة من مادة الواقع ولكن بتكبير وتعظيم ، وله براعة ممتازة في استنهاض الراقد وتحذير الغافل عن الخطر الداهم ولو كان موهوماً ، وقد عاش مفجوعاً بواقعة كربلاء التي تركت في نفسه أثراً عميقاً فظهر هذا الانفعال النفساني جليا في مراثيه . فاسمعه ينوح على شهيد الإباء ، وديوانه كما سلف نواح وتهديد وزجرة ووعيد :

وادعت حولي الشجا ذات طوق ... مات منها على النياح الهجوع
شاطرتني بزعمها الداء حزناً ... حين أنّت وقلبي المفجوع

(١) البوغاء : التربة الرخوة كأنها ذريرة ، وتأتي كفن من دون تضعيف متعدية لواحد فاذا ضعفت عديت إلى اثنين كسرب

يا طروب العشيّ خلفك عنى لم يهجنى صبابة وولوع
لم يرعنى نوى الخليـــط ولكن
من جوى الطف[1] راعني ما يروع

أى يوم بشفرة البغي فيـــه عاد أنف الاسلام وهو جديع
أينما طارت النفوس شعاعاً فلطير الردى عليها وقوع
قد تواصت بالصبر فيه رجال فى حشا الموت من لقاها صدوع
سكنت منهم النفوس جسوماً هي بأساً حفائظ ودروع

وقوله يعرض بالهاشميين وتثاقلهم عن نصرته :

لتلو لوى الجيـد ناكـة الطرف
فهاشمها فى الطف مهشومة الأنف
ويا مضر الحمراء لا تنشرى اللوا
فان لواكِ اليـــوم أجدر باللف
ألستم إذا عن ساقها الحرب شمّرت
وعن نابها قد قلصت شفة الحتف
سحبتم إليها ذيل كل مفاضة[2]
ترد الظبـا باللثم والسمر بالقصف
فكيف رضيتم من حرارة وترها
بماء الطلى[3] منكم ظبا القوم تستشفى

ثم يتجه إلى الامام على بن أبى طالب ويخاطبه مخاطبة الأحياء على الأساليب الشعرية المتبعة

أبا حسن أبناؤك اليوم حلّقت
بقادمة الأســـياف عن خطة الخسف
لقد حشدت حشد العطاش على الردى
عطاش وما بلّت حشاً بسوي اللهف
فتلك على الرمضاء صرعى جسومهم
ونسوتهم هاتيك أسرى على العجف[4]
وهل زحف هـــذا اليوم أبقى لحيهم
عميـــد وغي يستنهض الحى للزحف

* * *

(١) الطف : المكان الذى قتل به الحسين (٢) درع واسعة
(٣) الرقاب وهى من مثلثات قطرب . قال عبد الرحمن السنهورى :
وولد الظبيـــة يدعى بالطـلا والراح ان تطبع تسمى بالطلا
وجمع أعناق الأنام فالطـلي تقـودها أزمـة الأقدار
(٤) العجف الابل الهزال

وله من أخرى :

عثر الدهر ويرجو أن يقالا ترب كفك من راج محالا
لا أقالتنى المقـــادير إذا كنت ممن لك يا دهر أقالا

وتسمع هنا لكبرياء نفس الشاعر قعقعة وجلجلة ، وأى تعاظم يطاول بالمرء الدهر ويجعله عرضـة لسخط الشـاعر وغضبه بحيث يوقف موقف الذل والاستكانة حتى يطلب إقالته من عثرته

أزلال العفو تبغي وعلى أهل حوض الله حرمت الزلالا
المطاعين إذا شبت وغى والمطاعيم إذا هبت شمـــالا
إن دعوا خفوا إلى داعى الوغى وإذا النادى احتبى كانوا ثقالا
وقفوا والموت فى قارعـــة لو بها أرسى ثهلان لزالا

وقوله حرمت الزلال يلوح إلى قتل الحسين وأصحابه عطاشاً وذلك من مآسى الواقعة التى أخذت مجالا لمناحة الشعراء

وقوله من أخرى :

وخائضين غمار الموت طائفة أمواجها البيض بالهامات تلتطم
مشوا إلى الحرب مشى الضاريات لها
فصارعوا الموت فيها والقنـا أجم
ولا غضاضة يوم الطف إن قتلوا صبراً بهيجاء لم تثبت لها قدم
فالحرب تعلم إن ماتوا بها فلقد ماتت بها منهم الأسياف لا الهمم
أبكيهم لعوادى الخيل إن ركبت رؤوسها لم يكفكف عزمها اللجم
وللسيوف إذا الموت الزؤام غدا فى حدها هو والأرواح يختصم
تنمى إليك دماء غاب ناصرها حتى أريقت ولم يرفع لكم علم
مسفوحة لم تجب عند استغاثتها إلا بأدمع ثكلى شفها الألم
حنت وبين يديها فتية شربت من نحرها نصب عينيها الظبا الخذم
موســـدين على الرمضاء تنظرهم
حرى القلوب على ورد الردى ازدحموا
سقياً لثاوين لم تبلل مضاجعهم إلا الدماء وإلا الأدمع السجم
أفناهم صبرهم تحت الظبا كرماً حتى مضوا ورداهم ملؤه كرم

* * *

وقد افتتح هذه القصيدة بحماسة تذكر بفخر المتنبي وتهديده ووعده ووعيده قال :

إن لم أقف حيث جيش الموت يزدحم
فلا ســـمت بى فى طرق العلى قدم
لا بد أن أتداوى بالقنا فلقد صبرت حتى فؤادى كله ألم
عندى من العزم سر لا أبوح به حتى تبوح به الهندية الخذم
لا أرضعت لى العلا بناصفو درتها إن هكذا ظل رحمى وهو منفطم

ولربما أكثرنا من الاستشهاد بالمقطوعات الرثائية التى هي من هذا الفرع الغض النضير بشمريته وإهابه الجهم الكالح بمؤداه الباكي بمغزاه ومعناه، ونظن أن فى هذا النوع طرافة وجدة عند قراء (الرسالة) الكرام

وبعد فانك واجد هـذه الوقعة قد أثرت أثرها فى الأدب وأنشأت جانباً خاصاً له مميزاته ومزاياه تربطه صلة قوية العرى محكمة الحلقات، وليس هذا القسم من الشعر ثمرة الأيام الأخيرة، كلا فانه يمتد إلى عهد دعبل الخزاعى ورثائيته التى مطلعها:

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات

والحسن بن الضحاك الذى يقول:

ومما شجا قلبي وكف كف عبرتى محارم من آل النبيّ استحلت

وجعفر بن عفان الشاعر العباسى الذى يقول من قصيدة:

ليبك على الاسلام من كان باكياً فقد ضيعت أحكامه واستحلت
غـداة حسين للرماح دريئة وقد نهلت منه السيوف وعلت
وغودر فى الصحراء لحماً مبدداً عليه عتاق الطير باتت وظلت

وسليمان بن قتة العدوى مولى بنى تميم وذلك حين مرّ بكربلا بعد قتل الحسين بثلاث، فنظر إلى مصارعهم واتكأ على فرس له عربية وأنشأ يقول، وقيل إنها لأبى الرجيح الخزاعى، وقال ابن الأثير إنها للتيمى تيم مرة قال وكان منقطعاً لبنى هاشم:

مررت على أبيات آل محمد فلم أرها أمثالها يوم حلت
ألم تر أن الشمس أضحت مريضة لفقد حسين والبلاد اقشعرت
وكانوا غياثا ثم أضحوا رزية لقد عظمت تلك الرزايا وجلت
وإن قتيل الطف من آل هاشم أذل رقاب المسلمين فذلت
وقد أعولت تبكى السماء لفقده وأنجمنا ناحت عليه وصلت

وعقبة بن عمرو العبسى وهو أول من رثى الحسين فيما حكاه سبط ابن الجوزى عن السدى:

مررت على قبر الحسين بكربلا فغاض عليه من دموعى غزيرها
وما زلت أبكيه وأرثى لشجوه ويسعد عينى دمعها وزفيرها

وآخر من عبد القيس قتل أخوه مع الحسين:

يا فرو قومى فاندبى خير البرية فى القبور
ذاك الحسين مع التأوه والتفجع والزفـير

والفضل بن عباس:

أعينى إنـ لا تبكيا لمصيبتى فكل عيون الناس عنى أصبر

وبديع الزمان الهمذانى:

يا لـة ضرب الزما ن على معرسها خيامه
لله درك من خُزا مى رمضة عادت ثغامه
لرزية قامت بهـا للدين أشراط القيامه
لمضرج بدم النبوة ضـارب بيد الأمامه
متقسم بظبا السيوف مجرع فيهـا حمامه

والسيد الحميرى:

أمرر على جدث الحســين وقل لأعظمه الزكية
يا أعظما لا زلت من وطفاء ساكبـة روية

وبعد فهذه صفحات من أدبنا القوى طوى المارك المفرقة بين أمة الضاد التى أثارت دخان هذا الشعر — ما دهمنا من خطر الغرب، فنحن ندرسها للتاريخ لا أكثر، فقد دثر الهاشميون والأمويون وقبرت معهم منازعاتهم حول الملك

العراق — النجف الأشرف ضياء الدين الدخيلى

رفائيـــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقـــلم

احمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشا